الصمد

من أسماء الله الحسنى اسم الصمد ، وفي سورة الإخلاص :

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص : ١-٢] .

فالصمد ؛ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، ورد في الأحاديث الشريفة ، ومعنى الصمد : القصدُ . وفي حديث معاذ بن عمرو بن الجموح في قتل أبي جهل قال : فصمدتُ له . . أي قصدته حتّى أمكنتني منه غِرّة .

هذا المعنى الأول في اللغة . . الصمد : القصد . . صمدتُ له : قصدتُه . . والصمدُ كذلك : السيِّدُ المطاع الذي لا يقضى دونه أمر ، سيِّد متمكِّن ، مطاع ، أمره نافذ . . وأصمد إليه الأمر : أسنده إليه .

ويقول بعض علماء اللغة : « **إنَّ الصمد في اللغة له وجهان : أنّه فعلٌ بمعنى مفعول** » . . أي مقصود ، صمدتُ إليه أي قصدته ، أو هو المقصود ، أي السيِّدُ المقصودُ . المصمود في الحوائج : أي المقصود في الحوائج . فإذا أحبَّ الله عبداً جعل حوائج الناس إليه ، أي أتاح له أسباب العمل الصالح .

هناك شخص يتملَّص من كلِّ عمل ، يتملَّص من كلِّ عبء ، يتملَّص من كلِّ موعد ، يتملَّص من كلِّ بذل ، ومن كلِّ عطاء ، يأخذ

ولا يُعطي ، وإذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا ، أو من أهل الآخرة ، فاسأل نفسك السؤال الدقيق : ما الذي يفرحك ؟ أن تعطي أم أن تأخذ ؟

أهل الدنيا يفرحهم أن يأخذوا ، وأهل الآخرة يفرحهم أن يُعطوا . وهذا مقياسٌ دقيق ، حتّى إنَّ العرب في لغتهم يصفون الذي يسعده العطاء بكلمة أريَحيّ . هو أشدُّ كرماً من الكريم ؛ يرتاح في العطاء . يعطي ليستريح ، فإذا كنت من أهل الإيمان ـ وعليك أن تدقّق في هذه الكلمة ـ فاعلم أن المؤمن حياته مبنيّةٌ على العطاء ، وغير المؤمن حياته مبنيّةٌ على الأخذ .

والذي يعطي فإن الله جلَّ جلاله يعطيه ، أنفق بلالُ ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً . عبدي أنفق ، أُنفق عليك .

وهناك في القرآن كريم آيات عديدة ـ تزيدُ على ثماني آيات ـ تقرر أنَّ كلَّ نفقةٍ يعوِّضها الله أضعافاً مضاعفة فقد قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبا : ٣٩] .

هذا كلام خالق الكون . فالصمد ؛ بمعنى المصمود : أي المقصود في الحوائج كلِّها . وإذا أحبَّ الله عبداً جعل حوائج الناس إليه . والمؤمن لا يتأثَّر لو طرق بابه في اليوم مئة مرَّة ، لو اتصلوا به عشرات المرّات ، لو تزاحم الناس على بابه لا يتأثّر ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعلك تأخذ ، على أن يجعلك تقف ذليلاً أمام باب إنسان لئيم ، فإذا مكَّنك الله ؛ أعطاك صحَّةً ، وأعطاك مالاً ، وأعطاك مكانةً ، وأعطاك شيئاً يمكن أن تنفقه ، لا تبخل به ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقرُّك على النعم ما بذلتها ، فإذا منعتها منعها عنك .

والعرب تقول : بيتٌ مصمود : إذا قصده الناس في حوائجهم .

تجد في الأسر رجلاً يسمّونه الآن عميدَ الأسرة ، يقصده كلُّ أطراف الأسرة في زواجهم ، في أعمالهم ، في وظائفهم ، في حلِّ مشكلاتهم ، في كلّ ما من شأنه أن يتدخَّل من أجله ، هذا الإنسان محترم .

وقال بعض متأخِّري اللغة : الصمد هو الأملس من الحجارة الذي لا يقبل الغبار ، بمعنى صقيل ، ولا يدخله شيءٌ ولا يخرج منه شيء ، لا دخول ولا خروج ولا استقرار . . هو الصمد . . هذا كلُّه معنى كلمة الصمد في اللغة .

أما الصمد إذا كان وصفاً لله عزَّ وجلَّ ، أو كان اسماً من أسمائه ، فقال العلماء : الله سبحانه وتعالى صمدٌ ؛ لأنَّ الأمور أُسندت إليه ، يعني الأمور رجعت إليه وهذا المعنى ورد في القرآن الكريم ، فقد قال تعالى :

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود : ١٢٣] .

أحياناً تجد في دائرة أو مؤسسة أو معمل أو مدرسة ، رجلاً قوياً لا يستطيع أي موظَّف أن يبتَّ في قرار ، أو يتّخذ أي قرار ، ما لم يرجع إليه فالأمر كلُّه بيده ، خيوط كلِّ الموضوع مجموعةٌ بيده ، فالله سبحانه وتعالى إذا قلنا إنّه صمد ؛ أي إنَّ الأمور كلَّها أصمدت إليه ، أي أسندت إليه .

فما قولك إذا كان الأمر كلُّه بيد الله ، أتسأل غير الله ؟ أو هل تتوجّه إلى غير الله ؟ أتعلِّق الأمل على غير الله ؟ أتخاف من غير الله ؟ . . أبداً .

فقد سألني أحدهم مرّة : ما الذي يقوّي توجُّهي إلى الله ؟ قلت له : التوحيد . ما الذي يقوّي إخلاصي ؟ التوحيد ، مالذي يقوي عزيمتي ؟ التوحيد . ما الذي يبعدني عن الشرك ؟ التوحيد . وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد . وكلُّكم يعلم أنّ القرآن كلّه من دفته إلى دفته ، من فاتحته إلى سورة الناس ؛ كلّه حول التوحيد والدليل قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠] .

هذا هو الدين . . بل إنَّ فحوى دعوة الأنبياء جميعاً دون استثناء هو التوحيد ، والدليل قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

الدين كلّه قائم على عقيدة التوحيد والعبادة ؛ وحِّد . . واعبدْ ، تفز بالدنيا والآخرة ، بذلك تجمع المجد من كلِّ أطرافه .

قال : الصمد في وصف الله تعالى ؛ هو الذي أسندت الأمور إليه ، فلم يقضِ فيها غيره . وهو الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج أي يقصد . فانظروا إلى هذه الفكرة الدقيقة : الأمور راجعةٌ إليه . . إذاً هو المقصود كنتيجة طبيعيّة .

فأنت على نحو طبيعي وعفوي ، إذا دخلت إلى دائرة بحاجة إلى موافقة على طلب ، تسأل بيد من هذه الموافقة ؟ فإذا قيل إنّها بيد المدير العام ؟ فلا يمكن أن تبذل ماء وجهك لغيره ، ولا يمكن أن تسأل غيره ؛ لأنّك أيقنت أنَّ الأمر بيد فلان ، ما دام الأمر بيده أنت

قصدته . من أين يأتي القصد ؟ من التوحيد.. إن وحّدت ، تتجه إلى الله .

لكن كفكرة أقول : بعض الآيات والأحاديث.. كفكرة سهلة ، وإدراكها سهل ، وشرحها سهل ، لكن أن تعيشها هذه هي المشكلة..أجل أن تعيشها.. فيا ترى هل هناك مشكلة مزلزلة عشتها ؟ فأن ترى أنّ فلاناً هو الذي أوقعك بها ، أو فلاناً من الناس هو الذي خلّصك منها ، فهذا هو الشرك ، فأفكار التوحيد أفكار سهلة وليست معقّدةً ، أما الممارسات ، فهذه تحتاج إلى جهد كبير .

التوحيد محصِّلة جهودك الكبيرة في طريق الإيمان . فأحياناً يقال لك عن سعر العملة.. ؛ إنّ محصِّلة الإنتاج الزراعي ، والصناعي ، والتجاري ، وترشيد الاستهلاك ، والقدرة على جلب رؤوس أموال من بلاد أُخرى ، ورواج المبيعات ، والثروات الباطنيّة ، كلها عوامل مهمة تدخل في تحديد سعر العملة . كذلك كلُّ عوامل الإيمان محصِّلتها التوحيد . وقال العلماء : « **الصمد ؛ هو الدائم الباقي بعد فناء خلقه** » ، فقد قال تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ـ٢٧] .

وقال بعض العلماء : « **هو الذي خلق الأشياء كلَّها ، ولا يستغني عنه شيء** » .

بحسب تركيب الجسم المعقَّد جداً فسلامته وعافيته معجزة ؛ فالقلب وما به من دسّامات ، وأذينين ، وبطينين ، ومراكز توليد الكهرباء ، والأوعية ، والشرايين ، والأوردة.. والكبد ، والبنكرياس ، والغدد الصمّاء ومفرزاتها ـ بنسب دقيقة جداً ـ وبلازما

الدم. . . قلت : والله ، المعجزة أن يستيقظ أحدنا معافى ولا يشكو من شيء. . فهذه هي المعجزة ، من شدّة تعقيد الجسم ودقّته ، فأن يسلم جسم الإنسان من المرض فهذه المعجزة ، وتفسير هذه المعجزة لدى الإنسان أن يعلم أنّ الله الذي خلقه هو ذاته الحافظ ، وأنّ الجسم لا يستغني عن خالقه .

أيّ نسبة تتغيَّر تصبح معها الحياة لا تطاق ، لو أنَّ الكلية قصَّرت في وظيفتها تزداد نسب الحموضة في الدم ، ومن مضاعفاتها ضيق ، وتوتُّر عصبي ، وردود فعل عنيفةٌ جداً .

الملح إذا زاد ، يؤثِّر في الدم ، وإذا أصبح الدم لزجاً ، يتجمَّد فوراً . والتجمُّد يعني الشلل ، أو فقد البصر ، أو فقد الذاكرة ، فالإنسان شديد التعقيد ، فهو إذاً شديد الحاجة إلى الله ، الله هو الذي خلق الأشياء كلَّها لا يستغني عنه شيء . الإنسان يربّي ابنه وعندما يكبر يستقل عن أبيه ، وقد يغدو أقوى من أبيه ، وقد يغدو أغنى من أبيه ، وقد يصبح أبوه بحاجةٍ إليه . لكن الله الذي خلق كلَّ شيء ، وكلُّ هذه الأشياء لا تستغني عنه .

أحد العلماء له تعريفات أُخرى لاسم الصمد يقول : « **الصمد ؛ هو العالم بجميع المعلومات** » . . هذه إشارة دقيقة . . فالإنسان إذا نقصته المعلومات ضعف وضعفت قوَّته ، فأحد أسباب القوَّة ؛ المعلومات الدقيقة . فالإنسان إن كان يحتلُّ موقعاً قيادياً ؛ وإذا كانت معلوماته غير دقيقة ، أو ناقصة ، أو غير كاملة ، يضعف مركزه ، فأحد أسباب القوّة ؛ ألا يغيب عنك شيء . وهذه صفةٌ لله عزَّ وجلَّ ، فالإنسان قد يعلم شيئاً وقد تغيب عنه أشياء .

فقل لمن يدَّعي في العلم فلسفةً حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

فالله سبحانه وتعالى من خلال معاني اسم الصمد : أنَّه يعلم كلَّ شيء ، ولا يخفى عليه شيء .

وقيل : الصمد ؛ هو الحكيم . . أولاً : يعلم كلَّ شيء ، لكن مع هذا العلم أفعاله فيها حكمة ، فالحكمة هي أحد الأدلَّة الكبيرة على وجود الله . . فقد يكون هناك أشياء متراجحة . . فإذا أنت خاطبت إنساناً فهل من الممكن أن ترفع الصوت إلى درجة ليسمع من مئتي متر ؟ فلا يكون هناك حكمة . أو أن تهمس همساً من على بعد خمسة أمتار بحيث لا يسمعك ، فلا بدَّ من أن ترفع الصوت إلى درجة ليصله . فتعيير الصوت بحيث يصل إلى السامع دون أن يتجاوزه كثيراً ، ودون أن يقصِّر عنه ؛ هذه هي الحكمة . فالحكمة ؛ وضع الأشياء في أماكنها . والحكمة ؛ أن تفعل الشيء المناسب ، في الوقت المناسب ، في القدر المناسب ، للشخص المناسب على الشكل المناسب ، فالله سبحانه صمد ، هو حكيم . .

وقال : الصمد ؛ « **هو السيِّد الذي عظم سؤدُده** » ، أي مجدُه .

وقيل : الصمد . . « **هو الخالق للأشياء ، فإنَّ كونه سيِّداً يقتضي ذلك** » .

تعريفات أُخرى للصمد ، فعندما يقرأ الإنسان في صلاته :

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .

هذه المعاني كلُّها ينبغي أن ترد على ذهنه وقلبه . فالإنسان يتدبَّر

في كلام الله عزَّ وجلَّ ، ويتأمّل في المعاني الدقيقة التي يقرؤها فيخشع قلبه ، ويرقى إلى الله عزَّ وجلَّ بهذه المعاني .

قيل : الصمد ؛ « **هو المقصود إليه في الرغائب ، المستغاث به عند المصائب** » . وقيل : الصمد ؛ « **الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد** » .

الإنسان يشاء ولا يفعل ، لأنه لا يستطيع ، الله عزَّ وجلَّ وصف ذاته بقوله تعالى فعّال لما يريد ، ولكن قد يريد الإنسان تحقيق قضيّة ولا يستطيعها ، قال أبو الطيب المتنبي :

ما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

أما الله عزَّ وجل فهو :

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : ١٦] .

فقد تجد إنساناً يحبُّك ولك عنده مكانة كبيرة ، وتلجأُ إليه فيقول لك : والله لا أستطيع ، كان بإمكاني قبل هذا الوقت ، كان هناك شاغر وظيفيّ وقد سُدّ هذا الشاغر ، كان هناك شخص أعرفه نقل من منصبه ، على أنَّك أثيرٌ عنده لكنه يعجز عن مساعدتك .

الدين أساساً صلة بالله . التجاء إلى الله . وغير المؤمن يلتجىء إلى إنسان ، يعني إمّا أن تكون عبداً لله ، وإمّا أن تكون عبداً لعبد الله . فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وما دام يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه إذاً ؛ هو المقصود ، هو القوي ، هو الغني ، هو القهّار .

وقال بعض العلماء : « **الصمد هو الماجد الذي لا يتمُّ أمرٌ إلا به** » ، وقيل : الصمد . . « **الكبير ، الذي ليس فوقه أحد** » .

ففي ذات مرَّة سُئِل أحدهم فقالوا له : هل هناك من هو أكبر منك ؟ فقال : نعم ، والأكبر هناك من هو أكبر منه ؟ وأكبر وأكبر وهكذا . . والله هو أكبر من الجميع . وأنا مع الله . فالأكبر ؛ هناك من هو أكبر منه . فإن كنت عالماً ؛ فهناك أعلم منك ، وإن كنت قوياً ، فهناك أقوى . وإن كنت غنياً ، فهناك أغنى . أما الكبير الذي ليس فوقه أحد ، فهو الله ؛ بالقدرة والعلم والغنى ، فإذا كنت مع الله ، فأنت أقوى الناس ، وأنت أغنى الناس ، وأنت أعلم الناس .

وقيل : الصمد . . **« الكامل في كلِّ الصفات ، فيدخل فيه الكمال في العلم والقدرة والحكمة والغنى »** .

وقيل الصمد . . **« الذي يحتاج إليه كلّ أحد ، وهو مستغنٍ عن كلِّ أحد »** .

الإنسان الغني يحتاج إليه الناس ، وهو محتاج إلى الناس من أجل أن يأكل ، ومن أجل أن ينام ، مهما كنت غنياً أنت بحاجة إلى كلِّ الناس ، بحاجة إلى من يقدِّم لك رغيف الخبز ، بحاجة إلى من يمسح لك سيّارتك ، بحاجة إلى من يمدد لك الكهرباء في البيت ، فالغني يحتاج إليه الناس ، ولكنّه في المقابل يحتاج إلى الناس . أما الصمد . . هو الذي يحتاج إليه كلُّ مخلوق ؛ وهو مستغنٍ عن كلِّ أحد ، يحتاج إليه كلُّ أحد ، وهو مستغنٍ عن كلُّ أحد .

وقيل : الصمد . . **« هو الذي تقدَّست ذاته عن إدراك الأبصار والعِيان . . وتنزَّه جلاله عن أن يدخل تحت الشرح والبيان »** ، فالأبصار والحواس لا تستطيع أن تُدركه ، هذا الصمد والشرح مهما كان لا يوفي جلاله ، وقيل : ـ كما قلت قبل قليل ـ الباقي بعد خلقه

لا يموت ، ولا يورث ، هو الذي يرث الأرض ومن عليها ، الأبدي ، الذات الكاملة .

وقيل : الصمد . . « **الذي لا ينام ، ولا يسهو ، ولا يغفو** » .

أحياناً تجد شاحنة (برّاداً) ـ ثمنه عشرون أو ثلاثون مليوناً ـ وتجده منقلباً على قارعة الطريق ، وسبب ذلك أنّ السائق قد نام وهو يقود السيّارة ، والنوم سلطان قهره ، ولكنَّ الله تعالى قال يصف نفسه :

﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وقيل : « **إنَّ الصمد هو الذي يصمد إليه في الحوائج ، ويقصد إليه في الرغائب** » ، وقال بعضهم : « **الصمد هو الذي لا يزول أبداً** » .

هذه المعاني كلُّها مما وردت في أثناء الكتب التي تحدَّثت عن أسماء الله الحُسنى ، أو فسَّرت كلامه جلَّ جلاله ، كلُّ هذه المعاني تشير إلى اسم الصمد .

الله عزَّ وجلَّ وصف نفسه بهذا الاسم ليكون مقصد عباده . أحياناً يسأل الإنسان قوياً ، لكن القوي لا يرغب في أن يلبّي الحاجة ، فقد يحرج لكي يلبّي لك حاجتك ، لكن الله عزَّ وجلَّ عندما قال لعباده : يا عبادي ، أنا صمد في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي اقصدوني ، إذاً هناك فرقٌ بين الله جلَّ جلاله ، وبين العبد فالله يغضب عليك إن لم تسأله :

لا تسألنَّ بُنَيَّ آدم حاجةً ... وسل الذي أبوابه لا تحجبُ

فالله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنَيُّ آدم حين يُسأل يغضب

الله قال لك : أنا صمد ، أي اسألني ، وهذا معنى قول النبيّ الكريم ﷺ في الحديث الصحيح :

عَنِ الأَغَرِّ قَالَ : أَشْهَدُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْهِلُ حَتَّى يَذْهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ ، ثُمَّ يَنْزِلُ فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ ؟ قَالَ : فَقَالَ : لَهُ رَجُلٌ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ ؟ قَالَ : نَعَمْ** » . [مسند الإمام أحمد] .

وهنا يقول بعض العلماء : الله جلَّ جلاله اختار هذا الاسم لذاته ، ليقصده عباده في المهمات في دنياهم وفي دينهم .

يقولون لك : دنيا . . نعم ولكن هناك دنيا ضروريّة للآخرة ؛ ففي الدعاء الصحيح : « **اللهمّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي** » [رواه مسلم] .

نعم ، أصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا : إذا كانت صحة الإنسان طيِّبة ، وذو مال يكفي حاجاته ، وله أهل محصَّن بهم ، وله أولاد ، فهذه دنيا لكن صالحة ، لذلك ما ورد في الدعاء اشتمل على صلاح الدنيا والآخرة : أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا .

وقال بعض العارفين : « **إنّ من أراد أن يتحلّى بكمالات الصمد ، فليقلل من الأكل والشرب ، وليترك فضول الكلام ، ويداوم على ذكر الصمد** » .

ألم نقل قبل قليل : الصمد هو الذي يحتاج إليه كلّ شيء ، وهو

مستغنٍ عن كلِّ شيء . فكلَّما كان الإنسان شرهاً يريد أن يأكل ، وأن يلبس ، وأن يسكن ، وأن يتزوَّج ، وشرهاً للشهوات ، ابتعد عن التخلُّق بأخلاق الصمد ، لكن يقول أحد الأدباء في تصوير بعض العقلاء :

لي صديق كان من أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظَّمه في عيني ، صغر الدنيا في عينيه . أي أن تتأدَّب بهذا الأدب ؛ تصغر الدنيا في عينيك ، فكان خارجاً عن سلطان بطنه . . كيف ؟ قال : لا يشتهي ما لا يجد ، ولا يُكثر إذا وجد . . كلام فيه معيار دقيق . . كان لا يشتهي مالا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، تجد المؤمن مؤونته خفيفة ، وظله خفيف ، وحاجاته خفيفة . بل إنَّ النبيّ عليه الصلاة والسلام وصف الزوجة الصالحة بأنَّها قليلة المؤونة ؛ أي طلباتها قليلة تقنع بالقليل . ففي الحديث :

عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مؤنَةً** » . [مسند الإمام أحمد] .

والله أعرف رجالاً كثيرين جداً دمرتهم زوجاتهم . زوجاتهم حملنهم على أكل المال الحرام ، وكُشِفوا وسُرِّحوا وعوقبوا وسجنوا ؛ هذا معنى قول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] .

تحمله على كسب المال الحرام . أما عادة النساء في السلف فكانت تقف إحداهن كل يوم مودعةً زوجها قبل ذهابه إلى عمله وتقول له : يا فلان ، اتَّقِ الله بنا فنحن بك ، نصبر على الجوع ، ولا نصبر على الحرام .

من أراد أن يتحلَّى بكمالات الصمد فليقلل من الأكل والشرب وليترك فضول الكلام ، أي الهذر . . من كثر كلامه كثر خطؤه . . فكان صاحب هذا الأديب خارجاً عن سلطان بطنه ، فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يُكثر إذا وجد ، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة ، فلا يتكلَّم بما لا يعلم ، ولا يماري فيما علم ، وكان لا يُدلي بحُجَّةٍ إلا إذا رأى قاضياً فهماً ، وشهوداً عدولاً ، وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جدَّ الجد فهو الليثُ عادياً .

فالتخلُّق بكمالات الصمد . . أن تُقلل تعلُّقك بالدنيا ، أن تُقلل تعلُّقك بِمُغرياتها ، قالوا : دخلت امرأة إلىٰ سوق من أرقى الأسواق في بعض المدن ، فالأصناف التي فيه لا تُعدُّ ولا تُحصى ، قالت هذه المرأة : يا إلهي كم هي الحاجات التي لا يحتاج إليها الإنسان !!

يقولون لك : فلان فقير ، الفقير له بيت وفيه حاجاته الأساسية ، ولكن مقياس الفقر والغنى عند الناس الكماليّات ؛ الأشياء الثانويّة ، فعندما يقنع الإنسان بالقليل يكون غنياً .

وكثيراً ما قلت : هناك فقر القدر ، وهناك فقر الكسل . . فقر الكسل مذموم ، لكنَّ فقر القدر معذور . وهناك غنى البطر ، وهناك غنى الكفاية ، اسع لغنى الكفاية لا لغنى البطر . واقبل فقر القدر ، وارفض فقر الكسل . . فالفقر الذي أسبابه الكسل يجب أن ترفضه ؛ لأنَّ علوَّ الهمَّة من الإيمان . أما الفقر الذي أسبابه القدر فيجب أن ترضى به ؛ لأنَّ هذه مشيئة الله . إن سعيت إلى المال لا تسعَ إلى غنى الترف والبطر ، بل اسعَ إلى غنى الكفاية : « **طوبى لمن هدي للاسلام وكان عيشه كفافاً** » « **قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه** » .

ومَنْ تخلَّق بكمالات الصمد ؛ عليه أن يُكثر من ذكر الصمد . مِنْ أحبِّ السور إلى النبي ﷺ سورةُ الإخلاص . . وقد ورد في بعض الأحاديث أنّها تعدِل ثُلث القرآن ، فنلاحظ في شهر رمضان أن الإنسان لتركه الطعام والشراب تصفو نفسه ، ألم يقولوا البطنة تذهب الفطنة ؟

قالوا كذلك : ومما نستفيد من اسم الصمد ؛ أنَّ المؤمن يعرف جيِّداً أنَّ الله هو الذي يُطعِمُ ولا يُطعَم . . فإذا كان الله وحده هو الذي يُطعم ؛ توجَّه إليه وتوكَّل عليه ، ورغب فيما عنده وأيِسَ مما في أيدي الناس .

من عرف أنَّ الله دائمٌ لا يزول ، زهد في حطام الدنيا . كلنا نرى رأي العين أن الإنسان عندما يغتني ، فكلُّ هذا المال يخلفه وراء ظهره لا يستطيع أن يأخذ منه شيئاً إلى القبر . . فإذا توقَّف القلب قال الطبيب لأهله : لقد انتهى ومات ، وعظَّم الله أجركم ، فكتبوا النعوات وقاموا بتشييعه إلى مثواه الأخير ، تخلّت عنه الدنيا فتخلى عنها حتى أخص الأشياء التي كانت له امتنعت عنه كغرفته وأثاثه ومقتنياته الشخصيَّة ، فإذا علم الإنسان أنَّ الله حيٌّ لا يموت ، وأنَّ الله لا يزول ، وأنَّ الله باقٍ على الدوام ، وأنَّه الباقي بعد فناء خلقه ، تعلق به وحده لأنه الباقي وغيره فان .

هذا إذاً موضوع الحوائج . . فلا تتعلَّق بالفاني ، ولكن تعلَّق بالباقي . فهناك بيوت جميلة جداً ، وهناك أذواق رفيعة ، الإنسان يشتهي أن يسكنها ولكنَّها هل تدوم ؟ لا . . لا تدوم ، فلا بُدَّ من أن يخرج منها أُفقيّاً . . مرَّةً واحدة ولا يعود أبداً . والمشكلة أن توازن بين

البيت وبين القبر فهناك تجد بوناً شاسعاً . وهذا هو مصير كلّ حي ، فإذا عرف الإنسان أنَّ اللهَ صَمدٌ ، بمعنى أنَّه المقصود ، يقصده . وإذا أيقن أنَّ الله هو الصمد بمعنى الباقي ، لا يتعلَّقُ بالفاني ، وطبعاً هذه الأشياء مهمَّةٌ جداً في فهم البحث وفي سلامة التوجّه والسلوك .

وبعد فالتطبيق العملي نتيجة هذه التعريفات . . فعندك ما هو باق وعندك ما هو فان ، فمن تعلَّق بما سوى الله ، فالمآل مؤلمٌ جداً ؛ وهو أنه يفارقه مهما عاش ، وتاركه قهراً . **« عش ما شئت فإنَّك ميِّت . . . وأحبب من شئت فإنَّك مفارقه »** ، إن أحببت هذه الزوجة ، لا بدَّ من وقتٍ تفارقها أو تفارقك . إذاً كما قال عليه الصلاة والسلام : لو كنت متَّخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام أفضل .

أما الأدب الثالث . . من أدب المؤمن مع هذا الاسم ألا يقصد بحوائجه غير الله ، وألا يُعوِّل إلا على الله . ألا يقصد إلا الله ، وألا يضع الآمال إلا بالله ؛ وهذا معنى قول علي رضي الله عنه : **« لا يخافنَّ العبدُ إلا ذنبه ، ولا يرجونَّ إلا ربّه »** .

الاستدلال الرابع : أن يتخلَّق الإنسان بهذا الاسم ، فيجعل نفسه مقصوداً من قبل الناس للخير ، معيناً لهم على حوائجهم ، أي إنّ الإنسان إذا فتح بابه ، واستقبل أصدقاءه وإخوانه وأحبابه وأقرباءه وجيرانه ، وقام بحل مشكلاتهم ، وأعانهم على حياتهم ، ووفَّق بينهم ، وزوَّج عزبهم ، وأصلح فيما بينهم ، فإذا كان مقصوداً في حوائج الناس يلبي حاجاتهم ويقوم بإسدائها لهم ، فقد تخلَّق بهذا الاسم . ويقول عليه الصلاة والسلام : **« أحبُّ الناس إلى الله تعالى**

أنفعهم للناس ، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على مسلم ، أو يكشف عنه كربة ، أو يقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً ، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد ، (يعني مسجد المدينة) شهراً ، ومن كف غضبه ستر الله عورته ، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة ، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام وإن سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » .

إنّ الإنسان إذا تفكّر في خلق السموات والأرض ، يرى جانباً من عظمة الله عزَّ وجلَّ ، وقد يرى أسماءه الحُسنى وصفاتِه الفُضلى ، ظاهرةً في الكون ، ظهوراً بيّناً واضحاً ، فالله سبحانه وتعالى يحتاج إليه كلُّ مخلوق ، يحتاج إليه كلّ شيء في كلِّ شيء ، إذاً هو المقصود ، وهو باقٍ على الدوام . إذاً تعلَّق بالباقي لا بالفاني . وكُلَّما خففت من شهواتك ومتطلَّباتك ورغباتك ، اقتربت من خالقك . وكلَّما فتحت بابك للناس لتقضي حوائجهم ، تخلَّقت بهذا الاسم . . أربعة تطبيقات عمليّة لهذا الاسم الصمد عرفناها : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .

ونرجو الله أن يوفّقنا لنعيشها عملاً وواقعاً .

* * *